

الفصل الثالث

مفاهيم الجغرافيا الاقتصادية

وفي عود على بدء لتحديد الجغرافيا الاقتصادية نستعرض فيما يلي تعاريفها العائدة للمدرسة البورجوازية ، ومن ثم ، لإستكمال اللوحة المقارنة ، تلك العائدة للمدرسة الماركسية ، ممهدين لذلك بالقول أنه منذ مدة ويصدر العديد من المقالات التي تدعو الى جغرافيا اقتصادية أكثر ميلاً الى الإقتصاد مقابل مقالات أخرى تدعو الى جغرافيا اقتصادية أكثر ميلاً الى الجغرافيا . إنما يبدو لنا أن التيار الأول الداعي الى الميل نحو الإقتصاد في الجغرافيا الاقتصادية هو الأقرب الى الواقع ، وذلك سواء أكان في النظام الإشتراكي ، بالرغم من الأخذ بالتوزيع الاقليمي للإقتصاد ، حيث هذا واقع حالها أم في النظام الرأسمالي ، سيما الذي يأخذ بالتخطيط الإرشادي ويدعو الى التوزيع الاقليمي للإقتصاد ، وخصوصاً في التجربة الفرنسية وتفشيها في إطار السوق الأوروبية المشتركة (الأقليم - الخطة أو البرنامج) ، وكذلك في الولايات المتحدة الأميركية السبقة على أوروبا في هذا المضمار (ايزرد ، ليونيتيف وغيرهما) . هذا مع الإشارة الى العلاقة الجدلية بين الميادين - في إطار شبه الإستقلالية لكل من الإقتصاد والجغرافيا - في الواقع الحياتي المعاش .

المدرسة البورجوازية

فمن بين تعاريف المدرسة البورجوازية القديمة للجغرافيا الاقتصادية التعريف التالي للعالم الجغرافي أ. مكندر ، الذي يرى فيها « العلم الذي يدرس انتاج السلع وتوزيعها »^(١) . وقد عمق جونز هذا التعريف ، بحيث أصبحت الجغرافيا الاقتصادية لديه « العلم الذي يدرس العلاقة بين العوامل الطبيعية والظروف الاقتصادية ودراسة انتاج الحرف والنشاط الاقتصادي »^(٢) . أما مكفارلين فأضاف صفة الديناميكية بقوله

S. W. Wooldridge and, W.G. East, The Spirit and Purpose of Geography, Hutchinson (١) 1962, p. 103

C.F.Jones, Economic Geography, , Mc. Millan, N.Y. 1967, p. 4 (٢)

ان الجغرافيا الاقتصادية هي « العلم الذي يدرس أثر البيئة الطبيعية في النشاطات الاقتصادية والعلاقات المكانية المختلفة »^(٣) . هذا في حين أن شيزولم قال عن الجغرافيا الاقتصادية انها « العلم الذي يدرس أثر الظروف الطبيعية في انتاج السلع وطرق نقلها ووسائل تبادلها »^(٤) . وأما هانز بويخ فقد رأى فيها « العلم الذي يدرس العلاقات المتبادلة بين الإنسان والأرض ، والتي ينتج عنها خلق ظاهرات بشرية متنوعة على سطح الأرض »^(٥) ، إنما ليعود مؤكداً على أن الجغرافيا الاقتصادية هي الجغرافيا قبل أي شيء آخر .

فكما نرى فكل هذه التعاريف ، وكثير غيرها مماثل لها فلم نذكره ونرد من يرغب به الى الهامش رقم (١٣) ؛ كل هذه التعاريف تتماثل أحياناً فيما بينها ، وتفسر بعضها البعض ، بحيث تتكامل ، وذلك بالرغم من الخلافات القائمة فيما بينها ، خصوصاً بالنسبة لموضوع الجغرافيا الاقتصادية بالذات . ومع ذلك بالامكان جمعها الى حد كبير في الإطار الذي يعتبر الجغرافيا الاقتصادية الدراسة لأنواع نشاط الإنسان على سطح الأرض لانتاج وتوزيع واستهلاك موارد الثروة الاقتصادية ، وعلاقة كل ذلك بالمكان . وهذا يسمح لنا بالقول بتعبير آخر أكثر ملموسية وبروزاً لفرض طرح مهام الموضوع ان الجغرافية الاقتصادية تهتم بطرق ووسائل كسب العيش ، أي باستثمار الانسان لموارد الأرض الطبيعية وانتاج السلع ، سواء أكانت المواد الخام أو الأغذية أو السلع المصنعة ، وأيضاً نقلها وتوزيعها واستهلاكها . وهذه الأمور كلها تشكل حقل الجغرافية الاقتصادية . فإذا ما أردنا تجسيد هذا المعنى أو المفهوم رأينا أن مهمات أو وظائف الجغرافية الاقتصادية هي التالية :

ما هي أنواع النشاطات الاقتصادية القائمة ؟ أين هي قائمة ؟ لماذا هي قائمة ؟ متى أقيمت ؟ وكيف أقيمت ؟

هذه الوظائف والمهمات ، وكما نرى ، وصفية سطحية ولا تدخل لب عملية الانتاج ، حيث قوى الانتاج وعلاقات الانتاج (١٤) وتوزعها الجغرافي . هذه الوظائف هي نتيجة عملية الانتاج ولا تدخل في عملية الانتاج نفسها ، في علاقتها الجغرافية بتواجد قوى الانتاج وعلاقات الانتاج ، وبالتالي فهي على سطح الأشياء والأحداث ولا تنفذ إلى أعماقها ، حيث الجوهر والحقيقة والتحرك عبر العلاقة المتبادلة أو الأخرى

J.M. Mac-Farlane, Economic Geography, London 1930, p. 1 (٣)

(٤) نقلاً عن د. حسن سيد أحمد أبو العينين ، الموارد الاقتصادية ، الطبعة الأولى مكتبة مكاوي ، بيروت ١٩٧٩ ، ص ١٧ (فيما بعد د. حسن أبو العينين ، الموارد الاقتصادية ص . . .) .

H. Boesch, A Geography of World Economy, Van Nostrand, Rainhold Company, London (٥)
(فيما بعد . . .) (Boesch , A Geography of World Economy, p . . . 1964)

الجدلية فيما بين الانسان والطبيعة .

هذا النقص في التفسير المشار اليه وكذلك التفاعل مع الطبيعة يستكمله ، الى حد ما ليس إلا ، وفي إطار المفهوم البورجوازي بالطبع ، التحديد التالي ، حيث نشعر بخلفية الاقتصاد القسائم على مفهوم الندرة والصراع مع البيئة الطبيعية وكذلك الاجتماعية لاجلها ، ومع جديد هو « المدى الاقتصادي » .

وبهذا الصدد يقول البروفسور في جامعة السوربون بول كلافال « الجغرافية الاقتصادية هي دراسة ظواهر المدى الاقتصادي لعملية صراع الناس مع الندرة أو القلة ، وبالتالي فهي تفسر تحركات الخيرات المنتجة وتوزعها ، كما تشير الى العقبات التي يصطدم بها المنتجون ، مميزة بين ما يعود من هذه العقبات الى الطبيعة وما يعود منها الى المؤسسات ، كما تشير أيضاً الى كون المناظر والمجموعات تجاور بعضها البعض نتيجة المقررات المتخذة من أجل الإفادة المثلى من المصادر الأولية » (٦) .

إنما رغم ما ذكرنا من استلحاق تفسيري وجديد هو « المدى الاقتصادي » ، فهذا التحديد غير مكتمل ورغماً عن ازدياد الايضاح بتفسير ما يقصد بالجغرافية الاقتصادية بما معناه انها تمكن من التعبير عن توزيع الانتاج وكذلك الاستهلاك في المدى الاقتصادي وكذلك قضايا المدن والمناطق والتطور والجمود .

ثم يكتب كلافال مضيفاً « والجغرافية الاقتصادية تحاول أن تفسر توزيع واقع حال الانتاج والتقسيم والاستهلاك . ولتفهم ذلك تستعمل القوانين الموضوعية من قبل الاقتصاديين ، مع الإشارة الدقيقة الى الطريقة التي يؤثر فيها المدى الاقتصادي على الواقع المذكور مغيراً ومقولباً » (٧) .

هذا التفسير من قبل كلافال يذكرنا بالإمكانية الجغرافية ، على اعتبار أن « المدى الاقتصادي » هو نتاج صراع المجتمع مع الندرة ، بالطبع في الطبيعة . وبالتالي فتأثير « المدى الاقتصادي » المذكور في الطبيعة يتوقف على الإنسان وثقافته ودرجة استعمال معرفته في صنع ظواهر هذا « المدى الاقتصادي » ، الذي يغير ويقولب الواقع الطبيعي ، بحيث يصبح واقع حال الانتاج والتقسيم والاستهلاك .

لذلك لا بد من استكمال هذه المفاهيم البورجوازية للجغرافية الاقتصادية والتي تفتقر الى الطريقة التاريخية والديناميكية والرؤيا البناءة ، لا بد من استكمالها بالمفهوم

(٦) Paul Claval, *Eléments de Géographie Economique*, Editions M. Th. Genin, Librairies Techniques , Paris 1976 , Introduction, p. 9 (Claval, *Géographie Economique*, p.) فيما بعد

(٧) Claval, *Géographie Economique*, p. 10

الماركسي ، الذي يتناولها عبر الأبعاد الثلاثة للمنطق الجدلي (١٥) .

إنما هذا لا يعني أن كل تحديدات ومفاهيم الجغرافية الاقتصادية البورجوازية على نفس المستوى . فالواقع ، وكما مر معنا في آخر العرض التاريخي في الفصل الأول ، هناك طرح ، في بعض البلدان الرأسمالية ، سيما فرنسا ، للجغرافية الاقتصادية يقتررب في مفهومه من المفهوم الماركسي مجرد الاقتراب بالطبع . مثالنا على ذلك التعريف الموسع التالي للعالم الجغرافي الفرنسي بيير جورج .

« إن غرض الجغرافية الاقتصادية هو دراسة الانتاج وكذلك أشكال تواجد الاستهلاك لمختلف المنتوجات في كل أنحاء العالم . وبالتالي فهي في جوهرها علم انساني ، وبمزيد من الدقة علم اجتماعي . فعمليات الانتاج والنقل والتبادل والتحويل والاستهلاك للمنتوجات هي نتيجة مبادرات ومدينة أيضاً بخصائصها ونجاحها لأشكال تنظيم متأية نفسها عن الماضي الخاص لكل مجموعة بشرية .

« فالظواهر والأحداث التي تشكل موضوع دراسة الجغرافية الاقتصادية هي نتيجة معطيات تاريخية مختلفة القدم كتطور وسائل الثقافة والانتاج الممتدة على مر آلاف السنين ، وكذلك تطبيق مكتشفات العلم المتتالية والمستمرة في بعض الظروف التاريخية والجغرافية وأيضاً الانتشار ، على سطح الكرة الأرضية ، لمختلف وسائل الانتاج والتبادل ومختلف انماط الاستهلاك والاستعمال ، وذلك حسب تطور مختلف الأنظمة السياسية والاقتصادية والاجتماعية وكذلك تطور التكنيك المرافق لها والتوسع غير المتوازن لكل من هذه الأنظمة»^(٨) .

نلاحظ ، بل نشعر. وحتى نحس هنا بعملية التوزع للانتاج وكذلك ، وهذا هو المهم الأهم والمميز عن التعاريف البورجوازية السابقة ، تأثير عمل النظام الاقتصادي - الاجتماعي في هذا الموضوع . هذا وتعبيرنا هنا بأننا « نشعر وحتى نحس » يعود لعدم التعبير الواضح أو الأصح الملموس لتسمية الأشياء بأسمائها واللجوء الى العموميات لدى الكاتب ، لذلك اضطررنا الى اعتماد هذا الأسلوب . ومع ذلك يمكن للقارئ ما بين السطور والمستقرىء للأفكار المعبر عنها وليس خلفياتها ، بل الأفكار ذاتها المعبر عنها بالأسلوب الذي عرفنا ، كل ذلك يمكن القارئ من الوصول الى ما وصلنا اليه وحتى تلمسه دون مبالغة . إنما مع ذلك لا نرى ولا نلمس أهمية دور فعل الجغرافية الاقتصادية في عملية التوزع هذه للانتاج ، مقرونة بالطبع مع غيرها من العلوم .

(٨) Pierre George, Précis de Géographie Economique, Presses Universaires de France, Paris. (٨) 1970, Introduction, (Pierre George, Géographie Economique, p. .. فيها بعد)

بالطبع لا ضير من ذلك على كاتب هذا المفهوم لأنه يعيش في بلد رأسمالي . يكفيه أنه توصل الى ما توصل اليه ، على ما يبدو لنا ، دون شد الشعيرات ، نتيجة محاولة استعماله نظرة الى الوجود ومفاهيم غير المفاهيم البورجوازية في هذا الموضوع ان لم تكن نقيضها ، على واقع رأسمالي . وإذا لم يلق نظرة الى المستقبل لمعرفة دور الجغرافية الاقتصادية ، فهذا أمر طبيعي ويعود للصعوبات المادية العملية وكذلك المعنوية التي تحيط في المجتمع الرأسمالي البورجوازي الذي يعيش فيه .

كذلك لم يتحدث عن علاقة الانتاج وتوزعه بعلاقات الانتاج ، لذلك لا بد من الاستعراض للنظرة الماركسية في الموضوع .

المدرسة الماركسية

فحسب المفهوم الماركسي فإن الجغرافية الاقتصادية علم اجتماعي ، وحتى علم اقتصادي ، يدرس التوزيع الجغرافي للانتاج ، كمفهوم لوحدة قوى الانتاج وعلاقات الانتاج ، مع ظروف وخصائص تطوره في مختلف البلدان والمناطق لبلد ما . وبمعنى أكثر ملموسية يصبح غرض الجغرافية الاقتصادية « دراسة أنظمة الأرض التي تنشأ خلال الحياة في المجتمع والظواهر الإقليمية الفعلية لنشاط الانسان في الانتاج وغيرها من النشاطات الاجتماعية »^(٩) . وكأمثلة ملموسة أيضاً عما يقصد بهذا التحديد لموضوع الجغرافيا الاقتصادية نذكر نظام الاسكان ، بمعنى نظام الأقاليم المترابطة فيما بينها ، « كالمدينة والمركز الصناعي والأقليم الصناعي وشبكة المواصلات والمؤسسات الزراعية ومصانع معالجة منتجات الأرض ومناطق محطات المياه المعدنية والمناخية وشبكة المحطات الكهربائية وخطوط نقل الطاقة والمناطق أو الأقاليم الاقتصادية كأنظمة متداخلة للأرض وكذلك الأكثر تداخلاً منها والتي تشمل كل البلاد »^(١٠) .

بالإضافة الى ما ذكرنا فالجغرافيا الاقتصادية تدرس هذه الأنظمة الاقتصادية الاجتماعية للأرض أو الأقاليم الاقتصادية - الاجتماعية بشكل ملموس ، أي في مرحلة تاريخية معينة ملموسة وفي مدى ملموس وكذلك في وسط جغرافي ملموس ، إنما متغير من جراء أثر فعل الانسان المستمر فيه وتفاعله معه . وتتجسد هذه الأنظمة الاقتصادية - الاجتماعية أو الأقاليم في مصادر الموارد الأولية والظروف الطبيعية - الوسط الجغرافي - المحيطة بالانسان - المجتمع -، الفاعل المعدل فيها باستمرار ، إنما مع التدابير التي يأخذها للحفاظ على هذه الموارد والظروف في عملية التغيير التي يقوم بها .

وبناء عليه فقد حدد بعض الجغرافيين الاقتصاديين السوفييت الجغرافيا

Saouchkine, Geographie Economique, p. 4 (٩)

Saouchkine, Geographie Economique pp. 4- 5 (١٠)

الاقتصادية « بأنها العلم الذي يهتم بمعالجة عمليات تشكيل الأنظمة الاقتصادية - الاجتماعية للأرض أو الأقاليم وإدارتها » (١١) .

والجغرافيا الاقتصادية علم اجتماعي ، وقد سبق وأشرنا الى ذلك ، وهي تدرس حياة المجتمع من رؤيا تاريخية مرتبطة بالأقاليم ، مركزة الانتباه ، بشكل خاص ، على تنظيم قوى الانتاج الاجتماعية في الأقاليم . ولذلك فهي تدرس أنظمة الاسكان للأرض والقطاعات المنتجة وغير المنتجة ، للتركيب التحتي في المجتمع أو قاعدته الاقتصادية ، في علاقاتها المتبادلة مع علاقات الانتاج : العلاقات الاجتماعية - التركيب الفوقي للمجتمع - ، مع ان هذه الأخيرة ليست موضوع الجغرافيا الاقتصادية التي لا تعالجها ، بل يعالجها الاقتصاد السياسي والاقتصاد الأقليمي .

فالأقليمية هي المؤشر الذي لا غنى عنه للجغرافيا الاقتصادية . كما أن خاصية الجغرافيا الاقتصادية تكمن في أنها لا تدرس فقط مختلف الأقاليم كتشكيلات عامة ، بل تتفحص تركيبها الداخلي وأهدافها وكذلك الظواهر الخاصة بها والحدود الجغرافية لتواجدها أو امتدادها وخطوط تحركها في قلب النظام وعلاقاتها الخارجية أيضاً . وكل ما ذكرنا يُعمل على تمثيله على الخرائط .

فالواقع أن الخلاصة للأقاليم التي ذكرنا وتحليل هيكلياتها الاقتصادية - الاجتماعية وكذلك عملها ، كل ذلك مكن من الانتقال من وضع الخرائط الاقتصادية - الاجتماعية الى وضع هيكليات وأنظمة الخرائط الحديثة ، ومنها ، منطقياً ، النماذج الرياضية لهذه الخرائط الحديثة .

والجغرافيا الاقتصادية تُستعمل بشكل واسع في التنظيم الإقليمي للصناعة والزراعة والنقل ومختلف أنشطة القطاعات الثلاث المعروفة . كما أن التنظيم الإقليمي الأمثل للبنى والأنظمة الاقتصادية - الاجتماعية هو حالياً ذو أهمية كبيرة وخاصة ، على اعتبار أنه يؤمن تسارع وتأثر التطور الاقتصادي بمجمله وفي مختلف القطاعات الاقتصادية . كما أن هناك علاقة وثيقة متداخلة بين وتأثر على تطور الاقتصاد في الزمان وتنظيم الاقتصاد في المكان . فالواقع اننا تجاه « ولادة التنظيم الإقليمي العلمي لتوزيع القطاعات المنتجة وغير المنتجة في حياة المجتمع » (١٢) . وهذا الأمر يقع على عاتق الجغرافيا الاقتصادية ويشكل لبها وجوهرها ، كما سوف نرى بشكل مفصل الى حد ما ، في الفصل السابع .

Ibidem p. 5 (١١)

Saouchkine, Geographie Economique, p. 9 (١٢)

وتُستعمل الجغرافية الاقتصادية الماركسية لاختيار أماكن إقامة المراكز الصناعية ومؤسسات الصناعة والنقل وفي الوقت نفسه تحديد الجدوى الاقتصادية لهذه المؤسسات والتوزيع العقلاني لمختلف حقول الاقتصاد الوطني وأيضاً رفع مستوى العلاقات فيما بين المناطق الاقتصادية وكذلك المؤسسات الخ

وفي الاقتصاد الاشتراكي ، فإن عملية توزيع الانتاج تجري بشكل متوازن متناغم ، على أساس الاستعمال الواعي من قبل المجتمع للقوانين الاقتصادية للاشتراكية ، وخصوصاً قانونها الأساسي الرامي الى التلبية القصوى لكل حاجات المجتمع المادية والثقافية المتنامية ، وذلك بواسطة تطوير ورفع مستوى الانتاج بشكل مستمر ، بالاستناد الى قاعدة تكنولوجية رقيقة التطور وكذلك قانون التطور المتناغم والمتوازن للاقتصاد الوطني وقانون التزايد المستمر لانتاجية العمل . كما تؤخذ بعين الاعتبار في عملية توزيع الانتاج الاشتراكي- أيضاً نتائج قانون القيمة .

وفي علاقات الانتاج أكثر ما يعار الاهتمام ، في الجغرافية الاقتصادية ، بالعلاقات التي تظهر في عملية التوزيع الجغرافي لقسمة العمل . هذا وقد تطوّرت أسس الجغرافية الاقتصادية ، سيما في الاتحاد السوفييتي ، حيث لم يعد يفهم منها مجرد التوزيع الجغرافي للصناعة والزراعة والنقل ، وإنما مجموع المجالات لمختلف جوانب عملية إعادة الانتاج الاجتماعي ، وبالتالي أضيفت دراسة السكان كقوة انتاج وكمستهلك للخيرات المادية .

حتى الآن ونحن في إطار غرض أو موضوع الجغرافية الاقتصادية . فلنتقل اذن الى منهجيتها ، التي تظهر مدى وقوة علاقتها بباقي العلوم ، سيما إذا ما تناولناها بالأسلوب الجدلي ، العائد بشكل خاص للمدرسة الماركسية ، والمجسد بشكل أخص بالمدرسة السوفييتية في الموضوع . إنما قبل ذلك لئلا هذه المنهجية في إطار المدرسة البورجوازية ، أو بالأحرى في إطار تنوعاتها ، المتأتية عن تحديدها أو تعاريفها المتنوعة ، التي رأينا ، مما يؤدي بالتالي الى مناهج مختلفة .

